آفـــة الكـــذب

إعداد
الدكتور عمر مولود عبدالحميد

آفـــــة الكـــــذب

عرفت كتب اللغة الكذب بأنه خلاف الصدق[1]، وعرفه أهل السنة بأنه الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عمداً كان أو سهواً أو غلطاً[2].

وعرّفه غيرهم بأنه الإخبار بخلاف الواقع عمداً[3].

قال ابن القيم: "شر ما في المرء لسان كذوب"[4].

ولقبح صفة الكذب وخطورتها على صاحبها دنيا وأخرى نجد القرآن الكريم والسنة النبوية تعرضا للكاذب بالزجر والنهي له تارة، وبيان سوء عاقبة أمره تارة أخرى في آيات وأحاديث كثيرة، كما تعرض العقلاء من الناس لذم هذه الصفة وذم صاحبها، والدعوة إلى مجانبته، وإرشاد الناس إلى خطورة وجوده في المجتمع.

فمن القرآن الكريم نجد قول الله تعالى:

1-﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [5].

2-﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [6].

3-﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [7].

---

(1) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1420هـ، 1999م، ط2، تح: عبدالسلام محمد هارون، مادة (ك ذ ب)؛ القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب مادة (كذب).

(2) ينظر شرح النووي على مسلم، باب تغليظ الكذب على رسول الله -صلى الله عليه مسلم- 69/1؛ القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، مادة: كذب.

(3) المرجعين السابقين.

(4) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، 121/1.

(5) سورة الحج، آية30.

(6) سورة النحل، آية 116.

(7) سورة الإسراء، آية 36.

4-﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [1].

وغيرها من الآيات التي يضيق المقام عن تتبعها وسردها.

أما من الأحاديث النبوية فما يلي:

1- "... وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"[2] رواه ابن مسعود.

2- عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: "ما كان خلق أبغض إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الكذبة فما تزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة"[3].

3- عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتثبت فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب"[4].

4- عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[5].

5- عن أسامة بن زيد قال: ... سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: "يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك، ألم

---

(1) سورة النحل، آية 105.

(2) صحيح مسلم مع شرح النووي، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، 160/16.

(3) السنن الكبرى، البيهقي، كتاب الشهادات – جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب: من كان منكشف الكذب مظهره غير مستتر به لم تجز شهادته، رقم 21419، 264/15.

(4) صحيح البخاري مع فتح الباري ، 245/11، صحيح مسلم، 117/18، واللفظ له.

(5) صحيح البخاري مع فتح الباري، باب حفظ اللسان، 243/11.

تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"[1].

6- عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"[2].

ومن كلام العقلاء ما يلي:

1–ما روي عن قيس بن حازم قال: سمعت أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– يقول: "إياكم والكذب؛ فإن الكذب مجانبٌ للإيمان"[3].

2–ما روي عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه قال: "المسلم يطبع على كل الطبيعة غير الخيانة والكذب"[4].

ثم إن للكذب دوافع تدفع من كتب الله عليه الشقاوة وتحركه ليقول أو يفعل أو يعتقد ما ليس بحق، ومن بينها ما يلي:

1–حب الانتقام ممن يعاديه، فيحيك له من الدسائس ما يشفي به صدره زوراً وبهتاناً.

2–حب الظهور بمظهر العظماء أو أصحاب العقول والتدبير.

3–الرغبة في كسب المال أو تكوين هالة ومكانة بدون وجود مقوماتها.

4–الاعتذار عن خطأ وقع فيه، فيحاول التخلص من عواقبه بالكذب.

5–تعوّد الكذب وإلفه.

6–الرغبة في شيء ليس له القدرة على تحصيله إلا بالكذب.

---

(1) صحيح البخاري مع شرح فتح الباري، 40/13، باب الفتنة التي تموج كموج البحر؛ صحيح مسلم مع شرح النووي، باب حفظ اللسان، 118/18، واللفظ لمسلم.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض، 3/12؛ صحيح مسلم بشرح النووي، باب تحريم الظن والتجسس...، 118/16.

(3) السنن الكبرى، البيهقي، رقم 21424، 265/15.

(4) السنن الكبرى، البيهقي، 21425، 265/15، كما روى مرفوعاً إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بالنص التالي: "يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب"، المصدر نفسه، رقم: 21426.

7-الاعتذار عن قصور أو تقصير بشأن شيء طلب منه أو وعد به فلم يفعله.

8-قلة المبالاة وعدم التثبت والعبث.

9-اللؤم والسخرية والاستهزاء بالناس.

10-الاحتيال على الناس والخسّة والدناءة.

وللكذب مراتب خمس:

الأولى – وهي أعلاها – ما تؤدي إلى الكفر ، من مثل الافتراء على الله أو على رسوله بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله خلاف الأدلة القطعية، أو نسبة ما لا يجوز إلى الله، لقول الله –تعالى–: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (1)، وقوله –أيضاً: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ (2)، وقوله – تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ (3)، وقوله –جلت حكمه: ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾(4).

الثانية – ما تقترب من الأولى في عظم الذنب، وهو ما يفهم من قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيما رواه أنسٌ أنه قال: "أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور" أو قال: "شهادة الزور"(5)(6).

وتتواجد هذه المرتبة في عدد من الصور، من بينها:

أ– الكذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بنسبة شيء إليه لم يحصل منه.

ب– الانتساب إلى غير الأب، لكسب شهرة أو نيل حظوة لم تكن.

---

(1) سورة النحل، آية 105.

(2) سورة النحل، آية 116.

(3) سورة يونس، آية 68.

(4) سورة التوبة، آية 30.

(5) قال الثعلبي: الزور: تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من سمعه أو رآه أنه بخلاف ما هو به، فهو تمويه بما يوهم أنه حق، سبل السلام، الصنعاني، 130/4.

(6) البخاري مع فتح الباري، كتاب الديات، باب قول الله –تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ، 157/12.

ج-الكذب في الرؤيا بأن يدعى أنه رأى المنام رؤيا ولم يرها، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن من أعظم الفرى أن يدّعي الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينه ما لم تر، أو يقول على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما لم يقل"[1].

د- اليمين الكاذبة أو اليمين الغموس، ليأخذ بها مالاً أو حقاً ليس حقه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة" فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟، قال: "وإن قضيباً من أراك"[2].

وعن ابن مسعود أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان" قال: ثم قرأ علينا رسول الله -صلى الله عليه مسلم- مصداقه من كتاب الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[3] إلى آخر الآية[4].

هـ- شهادة الزور، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "الإشراك بالله وعقوق الوالدين" وكان متكئاً فجلس، فقال: "ألا وقول الزور وشهادة الزور"، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[5].

كما قال -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه خريم بن فاتك الأسدي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "صلى صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائماً قال عدلت شهادة الزور الشرك بالله ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية:

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل، 349/6، وفي بعض النسخ "عينيه ما لم تر".

(2) صحيح مسلم بشرح النووي، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، 157/2.

(3) سورة آل عمران، آية77.

(4) المصدر السابق، 158/2-159.

(5) رواه البخاري، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته، صحيح مسلم بشرح النووي ، باب الكبائر وأكبرها، 81/2-82، واللفظ لمسلم.

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[1].

و- القذف بالزنا ممن لم ير بعينه ذلك.

الثالثة: المرتبة الثالثة من مراتب الكذب تتمثل في ادعاء شيء لا علاقة للمدعي به بما يرتب له مغنماً أو مكانة على حساب ضرر غيره أو أذاه، ولو كان هذا المغنم أو الأذى ضئيلاً، وهذا هو الكذب الذي إذا أطلق انصرف إليه، وهو الشائع الآن في المجتمعات، ويتساهل الناس في أمره مع أنه كثيراً ما يسبب فرقة بين المتحابين، ونفرة بين الأقارب والجيران، وهو من الكبائر.

الرابعة: المرتبة الرابعة من مراتب الكذب ما يحصل من وعود بين الأصدقاء أو في نفس الأسرة الواحدة، مما لا يترتب عليه ضرر، وتحصل به مصلحة ، وكثير ما يكون من الآباء والأمهات لأولادهم، ومن الطلاب لزملائهم، ومن الندماء لبعضهم، وهو من الصغائر؛ لصغر الآثار المترتبة عليه.

وقد حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما روي عن عبدالله بن عامر أنه قال: جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت ألعب فقالت لي أمي: يا عبدالله تعال أعطك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ما أردت أن تعطيه؟" قالت: أردت أن أعطيه تمراً، قال: "أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة"[2].

وهذا النوع من الكذب مع أنه وصف بالصغر فلا يصح التساهل في شأنه، ولا يجوز أن ينتشر بين فئات المجتمع؛ لأنه ينافي مكارم الأخلاق، وقد يجر إلى

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، 121/1. سند الصحابة في الكتب الستة.

(2)(2) السنن الكبرى، البيهقي ، باب من وعد غيره شيئاً ومن نيته أن يفي به ثم وفي به ...، رقم 21437، 269/15-270، وورد في النص: "تعال أعطيك" بالياء والصواب: "أعطك" بدون ياء ، لقول صاحب متن القطر في النحو: فإن سقطت الفاء بعد الطلب وقصد الجزاء جزم".

تصعيده وإلى اعتباره أمراً عادياً مما يترتب عنه قلب الحقائق وبُعد المجتمع عن فضائل الإسلام وآدابه.

الخامسة: المرتبة الخامسة من مراتب الكذب اعتباره مباحاً أو مندوباً أو واجباً تبعاً لمقتضياته ودواعيه.

فالعدو إذا أعلن الحرب على أمة الإسلام يجب أن تثبط عزائمه وأن تشيع – ولو كذباً– ما يدعو إلى ضعفه وتفريق جمعه والنجاة من مشاكله ومكائده.

والسعي بين المتخاصمين بذكر كلام طيب على ألسنة بعضهم للطرف الاخر بقصد الإصلاح بالرغم من أنه كذب فهو ممدوح؛ لأن القصد منه التقريب بين القلوب، وإزالة ما علق بها من أسباب الفرقة والشتات، ويثاب الساعي لإصلاح ذات البين ولو نسج من عند نفسه كلاماً لم يصدر من أحد الطرفين ما دام يعلم أن من شأنه أن يصلح بين المتخاصمين، وأن يجتث أسباب الفرقة والخلاف.

ووعود الرجل لزوجته بما من شأنه أن يثبت أركان البيت، وأن ينشر بين أفراده الدفء والمودة والعشرة الطيبة، ولو كان يعلم عجزه عن تنفيذ وعوده أو كان أظهر مما يحمله لها في قلبه تكون مطلوبة، ولا تكون من الكذب الممنوع.

وكل ذلك يجري في محيط تقدير المصلحة والمفسدة والنفع والضرر والخير والشر.

وما ذكرتُه يدلّ عليه ما روي عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أنها سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو يقول: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً ... ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاثة : الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها"[1].

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب، وبيان ما يباح منه، 157/16.

ضابط الكذب غير الممنوع:

إذا توقف بلوغ المراد مما يلائم مقاصد الشريعة على الكذب، ولم يمكن التحصيل بغيره جاز الكذب، ثم إن كان ذلك مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً أو مندوباً كان الكذب كذلك.

وينبغي أن يكون التعامل بين أفراد المجتمع وفق هذا الضابط، فلا يصح الإدلاء بمعلومة أو إرشاد الغير أو الإجابة عن سؤال بما يضر مصالح الاخرين بحجة ذكر الحقيقة واتباع الصدق.

واتباع التورية في مثل هذا مطلوب، وهي أن تطلق لفظاً ظاهراً في معنى وتريد به معنى آخر يتناوله ذلك اللفظ، لكنه خلاف ظاهره[1].

والتورية والمعاريض لا اختلاف بينهما، قال أبو عبيد: "المعاريض: أن يريد الرجل أن يتكلم بالكلام الذي إن صرح به كان كذباً، فيعارضه بكلام آخر يوافق ذلك الكلام في اللفظ، ويخالفه في المعنى، فيتوهم السامع بكلام آخر يوافق ذلك الكلام في اللفظ، ويخالفه في المعنى، فيتوهم السامع أنه أراد ذلك"[2]، قال عمران بن حصين: "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب"[3]، ومعنى مندوحة: سعة وفسحة، ومعنى ذلك أن من يتبع المعاريض لا يعتبر كاذباً.

بما أن الكذب وصف مذموم فقد طهّر الله منه أنبياءه ورسله –عليهم الصلاة والسلام–، ولم يقع منهم باعتباره الكذب الممنوع، وما وقع من سيدنا إبراهيم –عليه السلام– مصروف عن الكذب المذموم.

فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "لم يكذب إبراهيم النبي –عليه السلام– قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله: قوله: إني

---

(1) القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، مادة ورى.

(2) السنن الكبرى، البيهقي، رقم 21443، 271/15.

(3) المصدر السابق، رقم: 21440.

سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبّار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبّار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك..."[1].

ويتضح صرف كلام سيدنا إبراهيم عن الكذب المذموم في قوله: "إني سقيم" مع أنه لم يكن سقيماً على اعتبار أنه نوى بتخلفه عن الاستجابة إلى دعوة الملك لحضور احتفالات أعيادهم- نوى تحطيم أصنامهم، وهو واجب، وكذلك إجابته عبدة الأصنام في سؤالهم عمن حطم آلهتهم بقوله: "فعله كبيرهم هذا" مع أن كبير الأصنام لم يفعل شيئاً هو -أيضاً – من قبيل الكذب الواجب؛ لأن به حصل إفحامهم وإلزامهم الحجة بأن الأصنام عاجزة عن دفاعها عن نفسها، فكيف يصح أن تعبد ، لذلك قال الله تعالى: ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [2].

كما أن اعتبار زوجته سارة أخته لتنجو من ظلم الحاكم الجبار هو من قبيل المعاريض؛ إذ إنها أخته في الإسلام.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، باب فضائل إبراهيم الخليل، 15/123-125، وبقية الحديث: "فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام إبراهيم -عليه السلام- إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي لا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم -عليه السلام- انصرف فقال لها: مهْيَم، قالت خيراً، كفَّ الله يد الفاجر وأخدم خادماً، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء"، قال كثيرون: المراد ببني ماء السماء: العرب كلهم لخلوص نسبهم وصفائه، وقيل: لأن أكثرهم أصحاب مواش وعيشهم من المراعي والخصب وما ينبت بماء السماء. ينظر: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت 4/18440، و(مهيم) معناها: ما شأنك وما أخبرك. وفي القصة معجزة لسيدنا إبراهيم بشل يد من حاول الاعتداء على زوجه عليه السلام.

(2) سورة الأنبياء، آية 64.

وقد قال العلماء كلاماً كثيراً[1] في ما وصف بأنه كذبات من سيدنا إبراهيم، ومن بين ذلك ما قاله الزمخشري من أن ما روي عن إبراهيم –عليه السلام– أنه (كذب ثلاث كذبات) المراد التعريض، وسمي كذباً؛ لأن صورته صورة الكذب[2].

والكذب أياً كان نوعه مذمومٌ ولو كان عن طريق المزاح، فقد ورد فيما رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي –صلى الله عليه مسلم– قال: "ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به الناس، ويل له، ويل له"[3]، والويل: واد في جهنم يكون لمن هذه صفته.

واعتبرت شهادة الكاذب باطلة؛ لأن الشأن في الشهادة أن تثبت الحقوق، ولما كان الكاذب لا صدق فيما يقول فقد ألغيت شهادته، لما روي عن معمر بن أبي شيبة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أبطل شهادة رجل في كذبة كذبها"[4].

وتظل شهادته باطلة حتى يتوب؛ لما ورد عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: ما كان شيء أبغض إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الكذب، وما جرب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على أحد كذباً فرجع إليه ما كان حتى يعرف منه توبة"[5].

وقد صرحت الأحاديث الصحيحة بأن الكاذب يعتبر منافقاً، والمنافق نعت في القرآن الكريم بنعوت شديدة لا تطاق، فيكون الكاذب مستحقاً لهذه النعوت أيضاً، ومن بينها قوله –سبحانه وتعالى–: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا

---

(1) ينظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب قول الله –تعالى–: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾؛ شرح النووي على مسلم، باب فضائل إبراهيم الخليل –صلى الله عليه وسلم– 15/124–125؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 15/92–93.

(2) ينظر الكشاف، الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1/99–100.

(3) السنن الكبرى، البيهقي، رقم 21423، 15/265.

(4) السنن الكبرى البيهقي، رقم 21421، 15/264.

(5) المصدر نفسه، رقم 21420، 12/264.

إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ﴾ (1)، وقوله –أيضاً–: ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (2).

وفي الحديث الشريف فيما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "آية المنافث ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"(3)، وكذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"(4).

وللكاذب شعار يتمثل في اسوداد وجهه يوم القيامة، مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (5).

وقد قال ابن القيم: "والكذب له تأثير عظيم في اسوداد الوجه، ويكسوه برقعاً من المقت يراه كل صادق، فسيما الكاذب في وجهه، ينادى عليه لمن له عينان، والصادق يرزقه الله مهابة وجلالة، فمن رآه هابه وأحبه، والكاذب يرزقه إهانة ومقتاً، فمن رآه مقته واحتقره ..."(6).

---

(1) سورة النساء، الآيتان 142–143.

(2) سورة النساء، آية 145.

(3) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب علامات المنافقين، 67/1؛ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان: باب خصال المنافقين، 46/2.

(4) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافقين، 67/1؛ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب علامات المنافقين، 67/1؛ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب خصال المنافقين، 46/2، واللفظ للبخاري.

(5) سورة الزمر، آية 60.

(6) إعلام الموقعين، لإبن القيم، 122/1.

وبالرغم من ذم البخل والجبن والحكم بالدناءة على المتصفين بهما فإنهما أقل خطورة على المجتمع والأفراد من الكذب، ويمكن ان يجتمعا مع الإيمان في قلب واحد، بخلاف الكذب فإنه إذا دخل قلب امرئ خرج الإيمان منه، يدل على ذلك إجابة النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما روي عن صفوان بن سليم أنه قال: "قيل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا"[1] ، قال ابن عبد البر: لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت، وهو حديث حسن مرسل، ووصفه غيره بأنه مرسل ضعيف.

واعتبر من أكبر الجنايات أن تحدث غيرك ممن يعطيك سمعه، ويصغي إليك بقلبه، ويعتبرك صادقاً فيما تقول، لكنك في واقع الأمر غير صادق فيما قلته؛ لما روي عن سفيان بن أسيد الحضرمي أنه قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب"[2].

ثم إن ما تقدم اتضح به ضخامة ذنب الكاذب، واستثنيت أمور بالرغم من أنها كذب فلا يؤاخذ المتصف بها، وهناك من الأمور ما قد يظن أنه كذب وليس بكذب، ومن بينها:

أ– قول الشخص لغيره : يا بني، والحال أنه ليس ابنه، ولكنه يقصد بهذه النسبة –غالباً– التكريم والاحترام والملاطفة، أو يقول ذلك لأنه لا يعرف اسمه، ومن هذا القبيل ما يجري على ألسنة الناس في مخاطبتهم لغيرهم: يا شيخ، ويا حاج، ويا أخي.

---

(1) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أو عبدالله الأصبحي، دار إحياء التراث العربي، مصر، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، باب ما جاء في الصدق والكذب، رقم 1795، 990/2.

(2) السنن الكبرى ، البيهقي، باب من وعد غيره شيئاً ومن نيته أن يفي به...، رقم 21444، 271/15.

يرشد إلى ذلك ما روي عن أنس أنه قال: قال لي النبي –صلى الله عليه وسلم–: "يا بني"[1] ، وما روي عنه – أيضاً – أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان في مسيرة له فحدا الحادي، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "ارفق يا أنجشة ويحك بالقوارير"[2]، فإن إطلاق القوارير على النساء لا يعتبر كذباً.

ب–إطلاق البصير على الأعمى لا يعتبر كذباً، وهو من قبيل التفاؤل، والله يحب الفأل الحسن، ودليل كون هذا ليس كذباً ما رواه جابر –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "انطلقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقف نعوده"[3]، وكان رجلاً أعمى.

ومن هذا القبيل إطلاق اسم (البياض) على الفحم النباتي مع أن لونه أسود.

هذه تغطية نظرية لجوانب الكذب ومواقعه، مع التدليل عليها وتتبعها بتصوير أحوالها بصفة مختصرة ، لكن يبقى واقع الناس في هذا الزمان، فهل هم على بصيرة من محتوى هذه الدراسة؟، وهل صفة الكذب موجودة واقعياً؟ وإذا كانت فهل هناك مقاومة لها وتبصر بنتائجها؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبة.

وللإجابة عنها بإجمال نقول:

إن العامل في أي ميدان إذا صار يتغيب عن عمله، أو يحضر لكنه يتمارض في أدائه، وإن المدرس إذا ذهب لأداء دروسه أو محاضراته دون استعداد علمي ونفسي، وإن الطبيب إذا ذهب لمشفاه وتمارض في تفقد مرضاه، وإن الفلاح إذا جنى ثمار زراعته قبل أوانها أو موّه في عرضها للبيع فوضع في الواجهة

---

(1) صحيح مسلم شرح النووي، كتاب الآداب، باب جواز قول الرجل غيره يا بني للملاطفة، 129/14؛ السنن الكبرى، البيهقي ، باب من سمى المرأة قارورة، رقم 21451، 273/15.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب، 452/10؛ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب: رحمته –صلى الله عليه مسلم– بالنساء والرفق بهن، 80/15 مع شيء من الاختلاف في اللفظ؛ السنن الكبرى البيهقي، باب من سمى المرأة قارورة ...رق 21446، 272/15.

(3) السنن الكبرى، البيهقي، باب من سمى المرأة قارورة....، رقم 21449، 273/15.

أحاسنها، وإن رئيس المصلحة إذا حجب نفسه عن مكتبه وصار يسير عمله من خلال هاتفه الجوال، وإن الشرطي إذا توارى عن أعين المجرمين وتركهم يجوسون خلال الديار بالفساد والإجرام، وإن الطرقات إذا وجدت فيها المطبات دون إصلاح وترك فيها أصحاب المركبات يسيرون في غفله وتجاهل لقواعد المرور، وإن القاضي ووكيل النيابة إذا جاملا في رسالتيهما وأخذا الناس بالظنون، وإن رئيس العائلة إذا ترك أفراد أسرته يعيشون في حرية شخصية تتجاوز حدود الحرية الحقيقية، وإن الأسواق إذا صارت تسير حسب الأهواء دون مراعاة لاعتبارها من ميادين التكافل الاجتماعي، إذا حصل ذلك كله – وهو حاصل بلا ريب – كان الصدق بخصوص هذا المجتمع يعيش في متحف، والكذب هو الذي يتحرك في جنبات البلاد ومرافقها.

إذ غياب العامل أو تمارضه ولو سئل لقال: أؤدي عملي فإنه بدون شك كاذب، والمدرس المفروض أن يعطي لطلابه ما يمكنهم من فهم المادة، فعندما يذهب إليهم دون استعداد علمي أو يتغيب عن عمله فإنه –بدون شك – يكون كاذباً في قوله إنه مدرس، وكذلك الطبيب إذا كان همه تثبيت حضوره مع أن المطلوب علاجه للمرضى وكان متقاعساً أو يتعامل مع مرضاه بأسلوب القسوة والجفاء فإنه يعتبر كاذباً في قوله إنه طبيب، وهكذا بقية الشرائح التي ذكرتُ بعضاً منها.

ونتيجة ذلك أن المجتمع العربي يعيش في تناقض مع دينه وأخلاق شريعته وواجبه نحو وطنه وأمته، والمعاذير التي يختلقها كثير من الناس لتبرئة أنفسهم من عقاب القانون وعقاب الله لا يجديهم، ولا يمكن للأمة أن تنهض إذا ظلت على هذا التناقض الذي تزاوله وتعيش عليه دون رقيب أو حسيب، وهم مسؤولون أمام الله على تضييعهم لصفة الصدق، فهي أمانة يجب أن يعيشوا عليها لكي يتلافوا الأخطار المحدقة بهم من كل جانب حتى صارت تحاصرهم في عقر دارهم وهم لم ينتبهوا بالقدر الكافي، وقد تنبأت السنة النبوية بعواقب الناس إذا هم وصلوا لهذه المراحل وأنها ستكون عواقب وخيمة.

من ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم"[1].

(1) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، تح: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبدالمحسن الحسيني، رقم 1379، 99/2.